الخطبة السادسة عشرة

التضرع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله عدد خلقه، الحمد لله مداد كلماته، الحمد لله زِنَةَ عرشه، الحمد لله رضا نفسه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، وبعد: قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: 7/ 55].

- أَمْرٌ من الله تعالى بالدعاء لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 40/ 60].

- وعلمنا الكيفية فقال: تضرعاً وخفية؛ أي: بِذُلٍ ومسكنة وانخفاض صوت، دليل الإخلاص ودليل التذلل إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: 7/ 55]، وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور» جه - أبو داود - حديث حسن.

يعتدون في الدعاء يطلبون ما لا يليق، أو يطلبون المستحيل، أو يطلبون بقلوب لاهية، أو لا يطلبون بجدية وصدق، أو يطلبون مماراة أو مجاراة.

- الطلب: بخشوع القلب وصحة اليقين وأقصى الرجاء، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: 7/ 94].

(البأساء): ما يصيب الناس في أبدانهم من الأمراض والأسقام.

(الضراء): ما يصيبهم من فقر وقحط وانقطاع المطر وما فيه ضرر على معيشتهم.

(لعلهم يضَّرَّعون) أي: يذلون ويخشعون ويبتهلون إلى الله بذل واستعانة في كشف ما نزل بهم، لأنه سبحانه وتعالى النافع الضار بيده ملكوت كل شيء وعنده خزائن كل شيء.

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الحجر: 15/ 21]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: 6/ 63].

الالتجاء إلى الله سبحانه هو إيمان ضمني بأنه هو الله الخالق، هو الله القادر، هو الله الذي يجير ولا يُجَار عليه، دعاء الله تعالى إيمان بالله، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «الدعاء هو العبادة» عن النعمان بن بشير في الترمذي (3372).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: 23/ 76]، إن العذاب قد يأتي ليتفطن الناس إلى ربهم وليرجعوا عن غيّهم وليزدادوا عبادة وإنابة إلى الله عز وجل، لأن الدنيا قد تسحر الإنسان وتلهيه في أوديتها فيأتي العذاب أو البأساء والضراء أو المصائب لتُعَرّف الإنسان بأن هذه الحياة وهذه الدنيا فانية ولتذكره بمصيره ومثواه.

قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [السجدة: 32/ 21]، لذلك علمنا رسول الله ﷺ كما جاء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحد قط هَمٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك،

أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري وجلاء حزني، وذهاب غمي، إلا أذهب الله همّه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا، قال: فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها، قال: فقال ﷺ: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها» مسند الإمام أحمد.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت» أحمد - أبو داود.

قال الإمام الشافعي:

وَلَـرُبَّ نازِلَـةٍ يَضيـقُ لَهـا الفَتـى ذَرعـًا وَعِنـدَ اللَـهِ مِنهـا المَخـرَجُ

ضاقَـت فَلَمّـا استَحكَمَت حَلَقاتُهـا فرِجَـت وَكُنـتُ أَظُنُّهـا لا تُفـرَجُ

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل يتهجد ويناجي ربه يقول: «اللهم لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، ولك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» متفق عليه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت

من قاله من يومه موقناً به فمات دخل الجنة، ومن قاله من ليله موقناً به فمات دخل الجنة» البخاري.

- من علامات الافتقار إلى الله.

1 - غاية الذل لله تعالى مع غاية المحبة، وذلك يكون بالوقوف عند حدود الله تعالى، مقبلاً على الطاعة، ملتزماً بأمره ونهيه، بسعادة وسرور ورجاء، بأن يقبل الله عمله، وخوف من أن يكون قد دَاخَلَ عمله أي رياء أو عجب أو تكبر.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 4/ 173]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: 32/ 15].

2 - التواضع من مقتضيات التذلل لله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «يُحْشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال» البخاري في الأدب المفرد - صحيح - ت - ابن أبي شيبة - حم - (نار الأنيار): نار النيران، فجمع النار على أنيار.

قال عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبرياء» مسلم.

3 - التعلق بالله تعالى وبمحبوباته، قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل قلبه معلق بالمساجد» متفق عليه. قوله: قلبه معلق؛ أي: دائم الصلة بالله، دائم الاستحضار لأوامره، لا يشغله شاغل، قلبه معلق بما يرضي الله، بما يحب الله.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ

وَٱلْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: 24/ 36 - 37].

ومن تعلق قلبه بغير الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «تعس عبد الدينار، وتعس عبد الدرهم وعبد الخميصة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» البخاري في كتاب الجهاد (2887).

4 - مداومة الاستغفار، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 13/ 28].

التضرع: بذل وخضوع واستكانة، إخبات، خشوع، لين، دعاء الله تعالى وسؤاله بذل وخشوع وإظهار للفقر والمسكنة، والتضرع من الضرع، ضرع الشاة يلتقمه الصغير فيرتفع وينخفض، ويجتهد بلذة وجهد وهمة حتى يخرج من ثدي أمه ما فيه حياته ونماؤه وقوته وسعادته وشهوته.

فهلّا تضرعنا إلى الله عز وجل بهمة وجهد وبذل وسعادة، ونجعل ذلك غاية أمانينا وشهوتنا، قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 7/ 55].

1 - التضرع إلى الله يدفع البلاء والبأساء والمصائب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 6/ 42 - 43].

وقوم يونس عليه السلام رفع الله عنهم البلاء عندما استكانوا وذلّوا أنفسهم إلى الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: 10/ 98]، وقوم يونس خرجوا إلى الطرقات بنسائهم وأطفالهم ودوابهم، ودعوا وتضرعوا وبكوا إلى الله عز وجل واستغاثوا فكشف الله عنهم العذاب.

2 – أما الذين لم يُظهروا الخشوع والاستكانة وتجردوا من التضرع إلى الله فأخذهم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون: 23/ 76 – 77].

3 – وعُرِضَ على النبي ﷺ بطحاء مكة أن تكون ذهبـًا فرفض وقال: «لا يا رب ولكن أشبع يومـًا وأجوع يومـًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك» حم – ت، ولكن هذا الحديث ضعيف لضعف علي بن يزيد الألهاني، ولكن هناك حديث صحيح عن أبي هريرة قال: «جلس جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال جبريل عليه السلام: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلِق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد ﷺ أرسلني إليك ربك، أفملكـًا نبيـًا يجعلُكَ، أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل عليه السلام: تواضع لربك يا محمد ﷺ، قال ﷺ: «بل عبداً رسولاً» حم – .

1 – ففي الاستسقاء تضرع عليه الصلاة والسلام.

2 – وعند رمي الجمرات كان يقف ويتضرع مع كل حصاة.

3 – وفي الجهاد يتضرع ويسأل الله سبحانه، ويتذلل إلى الله سبحانه، كما هو مشهود عنه كما في غزوة بدر وغيرها، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 8/ 9].

4 – وعند الكرب قال ﷺ: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم» رواه البخاري ومسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: 6/ 63]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 7/ 94].

5 - الصدقات تدفع البلايا والمصائب.

6 - من لوازم التضرع البعد عن المعاصي.

7 - من لوازم التضرع الالتزام بأوامر الشريعة.

8 - من لوازم التضرع فعل الواجبات والخيرات: الصلاة في المسجد - التناصح - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - محبة الإخوان - الإخلاص في العمل - أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك - إغاثة الملهوف - إجابة ذوي الحاجة.

9 - من لوازم التضرع، البعد عن: 1 - الغيبة والنميمة والوقوع في أعراض الناس ولمزهم، 2 - البعد عن الكِبْر، 3 - البعد عن الشح والبخل، 4 - البعد عن الأنانية، 5 - البعد عن التفاخر فكل شيء من الله وليس لك من الأمر شيء.

كنت أعرف طبيباً بلغ من الفهم والذكاء والمال شأناً كبيراً وكانت له أخت معاقة فكان لا يُسلِّمُ عليها ولا يُحْضرها عنده، حتى لا تُرى معه فتحط من مكانته حسب رأيه، فقلت له: من جعلك بهذا الذكاء وهذا الفهم وهذا العلم؟ قال: دراستي وتعبي وكدي، قلت: من جعل أختك معاقة؟ قال: اضطراب جيني، قلت: من سمح بهذا الاضطراب الجيني؟ قال: عوامل وراثية. كل المناقشة وهو يتجنب إرجاع الأمور إلى الله تعالى! حتى إذا ضاقت عليه المسألة قال: الله، قلت: إذن كان الله قادراً على أن يجعلها مكانك ويجعلك مكانها، فاتق الله، فوالله لو اختلج عرق صغير في دماغك لفقدت كل شيء.

والله أعرف دكتوراً في الجامعة كنا نقول عنه: بأنه موسوعة علمية تمشي على الأرض

والله هو يقول لي الآن: إنه تأتيه حالات لا يعرف أين هو! ولا يعرف من حوله! ويكون في حالة ضياع! وأنه مصاب بمرض الزهايمر!

10 – الدعاء إلى الله بانكسار وذل.

– «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» متفق عليه.

– ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 21/ 87].

– ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 7/ 23].

– وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» ابن السني – السلسة الصحيحة (227).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: النجاة في اثنتين: التقوى، والنية الصالحة، والهلاك في اثنتين: القنوط والإعجاب بالنفس أو بالعمل.

لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: 24/ 52]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 3/ 154]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 40/ 19]، وقال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: 15/ 56]، وقال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 39/ 53]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 40/ 35]، وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا

وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 7/ 146].

قال الشاعر:

يا ربِّ حمداً ليس غيرك يُحمدُ يا من له كلُّ الخلائقِ تَصمدُ

أبوابُ غيرك ربّنا قد أوصدتْ ورأيتُ بابكَ واسعًا لا يوصَدُ

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 6/ 40-43].

1 - في حالة الرخاء يشركون ويعرضون.

2 - في حالة العذاب وفي حالة البأساء والضراء يلتجئون إلى الله.

3 - وفي حالة التجائهم إلى الله تعالى ينسون شركهم.

4 - والبأساء والضراء هي أمر من أوامر الله سبحانه ليذكر الناس بربهم وحتى يعودوا إليه ويعرفوا أنه سبحانه المالك لكل شيء والمقدر لكل شيء وإله ورب كل شيء.

5 - فمهمة البأس والضر حسب قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: 6/ 42].

6 - المانع من التضرع هو قسوة القلب، وتزيين الشيطان لهم الضلال، فكأن الله سبحانه يكشف لنا عن أعراض عدم التضرع وهي: 1 - قسوة القلب، 2 - إضلال الشيطان (بتزيين المنكر، بتجميله، بتعليله... بأمور كثيرة)، فيقولون عن الوباء: بسبب تلوث المياه، والحرائق في المزارع والغابات بسبب الجفاف وارتفاع الحرارة، والفقر والجوع والعَوَزْ بسب البطالة وازدياد عدد السكان، والبراكين والزلازل يقولون: ظواهر طبيعية، ولا يُرجعون الأمر إلى الله تعالى، ولا يعتبرون بأنها - والله أعلم -

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 32/ 21].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان؛ إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم؛ إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله؛ إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، يتخيروا فيما أنزل الله، إلا جعل بأسهم بينهم» صحيح الترغيب والترهيب، رواه ابن ماجه واللفظ له، والبزار، والبيهقي، وفي السلسلة الصحيحة (106).

1 – الإخبات: ألا ترى لنفسك عزاً إلا بالتواضع لله تعالى، التواضع الذي تتذلل به وتتلذذ به وتراه عزك ومجدك وتحقيق ذاتك هو الإخبات، قال تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: 22/ 34].

2 – التضرع: هو الإخبات برفع اليدين، والذل والانكسار بين يدي الله تعالى، معترفًا بالذنب طالبًا العفو والمغفرة من الله سبحانه، عالمًا بأن الله تعالى يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب، تدعو الله تعالى بأسمائه وصفاته وجلال نُعُوته وبما يليق به سبحانه وتعالى وبما علمنا رسول الله ﷺ، بقلب حاضر وبفكر واجد ونفس كلها يقين بأن الله تعالى يعلم ويرى ويسمع ويراقب ويغفر ويعاقب وإليه يرجع الأمر كله.

3 – الخشوع: – سكون الجوارح والقلب – الاطمئنان بالقرب من الله سبحانه

وتعالى، التذلل لأمر الله سبحانه، بالقبول، والاستسلام، والرضا، ومراقبة آفات النفس، والعمل.

4 - اللين: لين القلب، المؤمن هين لين، لا يغضب ولا يسب ولا يتذمر ولا يشكو، مؤمن بأن الله سبحانه مقدر الأمور، المرء يأخذ بالأسباب ويفعل ما يجب فعله، ثم يدعو ويتوكل على الله سبحانه وتعالى، ومهما كانت النتائج فهو طيب النفس، صابر، حامد، شاكر، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: 39/ 23].

5 - الخضوع: نزول وانحناء الرقبة ذلاً وانكساراً، وخضوع القلب، هو نزوله لأمر الله تعالى، هو مرضاته وسعادته بأمر الله وقدر الله، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: 26/ 4].

6 - الاطمئنان: الرضا التام، والسعادة التامة بكل ما أصابك به الله عز وجل، وبكل ما أعطاك، وبكل ما منع عنك، القبول التام لقضاء الله وقدره، والشكر والحمد الكاملين لله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 13/ 28].

الإخبات نوعان: 1 - مع الخالق -كما مر معنا-، 2 - مع المخلوق. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: 3/ 134].

قال ﷺ: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل في نفسه في غير مسكنة، وأنفق من مال جمعه في غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، ورحم أهل الذل والمسكنة، طوبى لمن ذل نفسه وطاب كسبه، وحسنت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن

الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله» تخ، والبغوي، والباوردي، وابن قانع طب، هق.

وقال ﷺ: «أحب الناس إلى الله؛ أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل؛ سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينـًا، أو تطرد عنه جوعـًا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظـًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضـًا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزول الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل» ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، طب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم